

اسم المادة: سورة الإنفطار

من سلسلة: تفسير جزء عمّ

لفضيلة الشيخ: د. أحمد عبد المنعم

حياة

Way2allah.com

way2allahcom

إنتاج فريق التفريغ بشبكة الطريق إلى اللّه



اسم المادة: سورة الإنفطار
من سلسلة: تفسير جزء عمّ
لفضيلة الشيخ: د. أحمد عبد المنعم

الحمد لله الواحد الأحد الفرد الصمد الذي لم يتخذ صاحبة ولا ولد، الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجا، الحمد لله عدد كل شيء والحمد لله ملء كل شيء، وأصلي وأسلم على سيد الخلق أجمعين؛ محمدٍ –صلى الله عليه وسلم–، ما ترك خيرًا إلا ودلنا عليه، وما ترك شرًا إلا وحذرنا منه، فصلاة وسلاما دائمين من رب العالمين على أشرف المرسلين محمدٍ –صلى الله عليه وسلم–.

أما بعد أحبتي في الله؛ أنزل الله –عز وجل– القرآن تبيانًا لكل شيء يهدي للتي هي أقوم، يقول الله –عز وجل–: "إِنَّ هَٰذَا الْقُرْآنَ –أي إن ما معكم في أيديكم من قرآن– يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ" الإسراء:٩، أي يقيم لكم الأمور، ويضع لكم الأمور في نصابها ويوضح لكم الأشياء، ويقوم الشيء المعوج، خلق الله –عز وجل– الإنسان؛ هذا الإنسان فيه صفات كثيرة تحتاج إلى تقويم، تحتاج إلى تعديل، فالإنسان خُلِق من عجل؛ الإنسان عجول، الإنسان ظلوم، الإنسان جهول، هذه النفس البشرية تحتاج إلى أن تتزكى، "قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا * وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا" الشمس٩:١٠، هذه النفس البشرية التي بين أضلعنا تحتاج إلى تزكية بالوحي، تحتاج إلى أن تتطهر بكتاب الله –عز وجل– وبسنة النبي –صلى الله عليه وسلم–. فالذي يقرأ القرآن ويتدبر القرآن ويجاهد نفسه على العمل بالقرآن هو الذي يتزكى، هو الذي يتخلص من هذه الصفات السيئة.

معنا اليوم سورة من سور القرآن تعالج نفسًا بشرية، تعالج خُلُقا في الإنسان هذا الخلق لو تركه الإنسان لضل ولتاه ولعاش في اضطراب وحيرة، هذا الخلق الذميم الذي لابد للإنسان أن يتخلص منه تعالجه هذه السورة التي معنا، إنها سورة الإنفطار، وتعالج خلق الغرور بالله –سبحانه وتعالى–. إن الإنسان قد يغتر بالله –سبحانه وتعالى– لذلك جاءت هذه السورة لتعالج هذه الصفة، وتبين له وتوضح له كيف يتخلص من هذا الخلق. وأن الإنسان قد يسقط في هذه الخديعة من الشيطان ويغتر بالله –سبحانه وتعالى–، لذلك جاء في هذه السورة خصيصًا قوله –سبحانه وتعالى– "يَا أَيُّهَا الْإِنسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ" الإنفطار:٦، ما الذي جعلك تسقط في هذا الخُلُق؟ ما الذي جعلك أن تكون مغرورًا بالله –سبحانه وتعالى–؟

تبدأ هذه السورة بقول الله –عز وجل–: "إِذَا السَّمَاءُ انفَطَرَتْ * وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انتَثَرَتْ * وَإِذَا الْبِحَارُ فُجِّرَتْ * وَإِذَا الْقُبُورُ بُعْثِرَتْ * عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ" تبدأ هذه السورة بلحظات في يوم القيامة؛ هذا اليوم الذي طالما تناساه المغرور بالله، الذي طالما ذُكِّر به وأبى أن يذكره، الذي طالما كان ينزعج إذا ذكر بيوم القيامة ويريد أن ينساه ويتناساه، مع كل حادثة موتٍ تحدث لأقربائه ولأصحابه يريد أن يتناساه، مع كل شيء يموت بجواره من حيوان أو نبات ويعلم أنه لابد أن يموت يتناسى هذا اليوم، يُذَكِّره الله –عز وجل– بهذا اليوم الذي سوف يأتي

حتمًا وسوف يأتي بغتة وسوف يأتي فجأة، قال الله –عز وجل– بحرف المفاجأة وحرف التأكيد "إِذَا السَّمَاءُ انفَطَرَتْ * وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انتَثَرَتْ" اعتاد هذا المغرور أن الشمس تطلع كل يوم، اعتاد هذا المغرور أن ينام كل يوم لا يفكر ماذا سيحدث في يوم القيامة، لا يفكر في أفعاله، لا يفكر في معاصيه، اعتاد أن تسير الحياة؛ تطلع الشمس ثم هي تغرب ثم يطلع القمر ثم يغرب، اعتاد هذه الحياة، يفاجئه الله –عز وجل– أن هذا النظام سوف يتوقف سوف ينهار، ويبدأ الله –عز وجل– هذه السورة "إِذَا السَّمَاءُ انفَطَرَتْ" الانفطار هو أول الانشقاق، قال علماء اللغة أول الانشقاق بيحدث انفطار؛ شق، أي أن هذه السورة تتحدث عن بدايات يوم القيامة، عن لحظات الصدمة الأولى لهذا المغرور، عن لحظات المفاجأة الأولى لهذا المغرور، لذلك لما قال الله –عز وجل– لإنسان متحديا أن يجد في السماء أي خرق قال الله –عز وجل–: "هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ" الملك:٣، لم يقل هل ترى من انشقاق؟ إن السماء لا يوجد فيها فطور فضلا على أن يوجد فيها انشقاقات، فقال له هل ترى ولو بدايات الشقوق؟ هل ترى فيها بدايات الانشقاق؟ فالانفطار بداية تشقق السماء، بداية التغيرات التي تحدث في السماء ثم تحدث أن تنتثر الكواكب، كل شيء يخرج من النظام، إن الله –عز وجل– يمسك السماء أن تقع على الأرض إلا بإذنه –سبحانه وتعالى–، حينئذ الله –عز وجل– يغير نظام الكواكب، تنتثر الكواكب لم يعد كل شيء يدور في فلكه، الكواكب تخرج عن النظام، الله –عز وجل– في هذه اللحظات يغير نظام الكون، الكل سوف يتغير في هذه اللحظات يفاجأ المغرور.

العجيب في بداية هذه السورة السماء تنفطر والكواكب تنتثر، ما الذي حدث للكون؟ ما الذي تعرض له الكون حتى تنفطر السماء؟ تخيل لما انت بتقول أنا قلبي انفطر من الحزن أي تعرض لضغطٍ عالٍ جدا حتى انفطر القلب من الحزن، تعرض لصدمة قوية جدا لم يستطع القلب أن يتحملها فانفطر، ما الذي تعرضت له السماوات باتساعها وبقوتها وبشدتها؟ ما الذي تعرضت له السماوات حتى تنفطر؟ وما الذي تعرضت له الكواكب حتى تنتثر؟ في هذه اللحظات "وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَىٰ وَمَا هُم بِسُكَارَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ" الحج:٢، في هذه اللحظات تفجر البحار التي كانت تأتي بالهواء وبالرطوبة في هذه الأوقات تتحول البحار إلى نار لا ملجأ في هذا اليوم.

ثم يبدأ التفتيش، "وَإِذَا الْقُبُورُ بُعْثِرَتْ" بداية لحظات حساب الإنسان أن يخرج من القبر "وَإِذَا الْقُبُورُ بُعْثِرَتْ" ظن ذلك المغرور أنه بعد الموت لا حساب، ظن ذلك المغرور أنه سوف يرقد في قبره آمنا مطمئنا إلى لا نهاية، وإذا به يفاجأ أن يُدَّقَ عليه القبر، تخيل حال المجرم الذي اقترف جريمة وظل في بيته آمنا مطمئنا يلهو ويلعب وفجأة يدق عليه الباب، هذه اللحظات هي لحظات الفزع لحظات الرعب لكل مجرم، حينما يدق الباب عليه فجأة، كذلك ذلك المغرور بالله الذي لم يفكر يوما في يوم الدين، الذي لم يفكر يوما في أفعاله، "وَإِذَا الْقُبُورُ بُعْثِرَتْ" هذه الآيات الأربع الأول في أول السورة ما هو جواب الشرط؟ "إِذَا السَّمَاءُ انفَطَرَتْ" لحظات الصدمة الأولى، "وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انتَثَرَتْ * وَإِذَا الْبِحَارُ فُجِّرَتْ * وَإِذَا الْقُبُورُ بُعْثِرَتْ" ماذا سيحدث بعد كل هذا؟ ما هو جواب الشرط لكل هذا؟ يقول الله –عز وجل–: "عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ" هذه الأشياء سوف تحدث حتى يعلم الإنسان ما قدم وما أخر، أي أن ذلك الإنسان الذي يخاطب في هذه السورة لم يكن يفكر في قيمة أفعاله، لم يكن يفكر الذي يفعله هذا حلال أم حرام، لم يكن يفكر هل يجب عليه أن يفعل الطاعة الآن أم يؤخرها، لم يكن يفكر فيما أخر من أفعال، لم يكن يفكر في كل هذا، كان يعيش حياةً لا مبالاة فيها، حياة مليئة بالعبث، مليئة باللهو، لا يفكر في أنه سوف يدين لله –عز وجل– ويقف بين يدي الله –عز وجل– يقرره بذنوبه ويحاسبه عليها.

فيقول الله –عز وجل– بعد هذه المقدمة من الآيات الأربع في هذه السورة يقول الله –عز وجل–: "عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ" سوف يعلم ماذا فعل تفصيلا، سوف يقرر بذنوبه تفصيلًا، سوف يعلم قدر كل فعل من أفعاله، كان يأكل الحرام ولا يبالي سوف يعلم الآن أن ما

أكل من حرام يلتهب في بطونه نارا، كان ينظر إلى الحرام ولا يبالي، كان يسمع الحرام ولا يبالي، كان مغرورا بالله –سبحانه وتعالى– الآن في هذه اللحظات بعد انفطار السماء وانتثار الكواكب وتفجير البحار وبعثرة القبور الآن سوف يعلم قيمة كل فعل من أفعاله ويحاسب عليها الآن سوف يعلم أن هذه الأفعال التي كان يفعلها بلا مبالاة، يجلس أمام التلفاز ساعات ينظر إلى الحرام بلا مبالاة، يسير في الشوارع يطلق بصره بلا مبالاة، يضيع الأوقات ولا يبالي، الآن سوف يعلم قدر كل وقت ضيعه في معصية الله، الآن سوف يعلم كل هذا ذلك المغرور بالله الذي أعرض عن ذكر الله ولم يلتفت بالا ولم يعطي بالا لذكر الله –سبحانه وتعالى–.

"عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ" أي ما فعلت من معاصي أو طاعات، وما "وَأَخَّرَتْ" أي ما أخرت من طاعات كان يجب أن تفعلها في وقتها، يستيقظ في الثامنة صباحا ولا يبالي أنه أخر صلاة الفجر، ينام حينما يعود من عمله ويؤخر صلاة العصر ولا يبالي، يؤخر الزكاة عن وقتها ولا يبالي، يؤخر ما يجب عليه من صلة للأرحام ولا يبالي، يؤخر ما يجب عليه من فروض ولا يبالي، ذلك المغرور بالله، الآن سوف يُنَبَّأ بما أخر، بما كان يجب عليه أن يفعله في وقته، "إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَوْقُوتًا" النساء:١٠٣، لها وقت، والزكاة كذلك لها وقت، والصيام له وقت، والحج له وقت، كل هذه الأفعال قيدت بالأوقات، الذي يؤخر الطاعات عن وقتها هو إنسان مغرور بالله –سبحانه وتعالى–.

أتعجب! كيف يستيقظ رجل أو امرأة تستيقظ دون أن تصلي الفجر، ويستيقظ في الثامنة صباحا ثم ينزل آمنا مطمئنا إلى عمله يطلب الرزق من الله، أتعجب كيف يفعل هذا؟! كيف يطمئن أن الله –عز وجل– سيرزقه؟! بل كيف يطمئن أن هذا الرزق ليس استدراج من الله –عز وجل–؟! لقد أخر الطاعات التي تجب أن تحدث في وقتها كيف يطمئن ذلك العاصي؟! كيف يطمئن ذلك المغرور؟!
الذي يمر عليه الحول تلو الحول ولا يخرج الزكاة بعد أن تبلغ النصاب، أهذا الذي يؤخر الزكاة لا يخاف من الله –عز وجل–؟! سوف يأتي يوم يعلم كل فعل أخره عن وقته سوف ينبأ به، عَلِمَتْ نَفْسٌ كل نفس سوف تحاسب، "عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ" وقيل ما أخرت أي ما سنت من سنة سيئة، عملت سنة سيئة فاقتاد الناس بهذه النفس، الناس جعلوه قدوة، وكرروا هذه السنة السيئة فهو يموت والمعاصي تستمر عليه، السيئات تستمر عليه لأنه سن في الناس سنة سيئة فالناس يقتدون به ويفعلون كما فعل، فهو يموت والسيئات تزداد في صحيفته –والعياذ بالله–.

"عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ" ثم يقول الله –عز وجل– ينادي هذا الإنسان حتى يفيق في الدنيا قبل أن يُصدم في لحظات الانفطار، يخاطب الله –عز وجل– هذا الإنسان قبل أن يفيق على الصدمة الأولى في يوم القيامة يقول له: "يَا أَيُّهَا الْإِنسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ" الإنسان قيل من كثير النسيان، ما الذي جعلك تنسى الله؟ وقيل الإنسان من الأنس، ما الذي جعلك تأنس بغير ذكر الله؟ لماذا كنت تأنس بالناس وبالمحرمات ولا يأتي عليك يوم تأنس بذكر الله وبقيام الليل؟
"يَا أَيُّهَا الْإِنسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ" عتاب يجعل الإنسان صاحب القلب السليم ينفطر كما انفطرت السماوات، هذا العتاب إذا تعرض له المؤمن يكاد ينفطر. يقول النبي –صلى الله عليه وسلم– كما أخبر بذلك ابن عمر –رضي الله عنه– حينما سئل عن النجوى فقال: يدني الله –عز وجل– عبده المؤمن منه ثم يضع عليه كنفه وستره وكأنه بذج أي كأنه ولد الضأن من شدة الضعف اللي بيكون فيه المؤمن في هذه اللحظة، المؤمن اللي فعل المعاصي ولكنه يخاف منها، المؤمن اللي وقع في المعصية غصبًا عنه سقط في شهوة أو غير ذلك وندم عليها، يأتي الله –عز وجل– بهذا المؤمن الطائع الذي وقع في المعصية لشهوة غصبًا عنه فيدني عليه كنفه وستره وكأنه بذج أي كأنه ولد الضأن الصغير ويقول له أتعرف يوم كذا؟ أتعرف يوم كذا؟ فيقول المؤمن وهو يستحي من الله ويكاد ينفطر أي ربِ أعرف، أنا عارف يا رب أي ربِ أعرف



أي ربِ أعرف فيقرره بذنوبه ثم يقول الله –عز وجل– له: سترتها عليك في الدنيا وأنا أسترها عليك اليوم.[1] اللهم استرنا يوم القيامة. ولكن العاصي الفاجر الذي انطلق في المعاصي بلا مبالاة، ذلك المغرور فيقول عنه النبي –صلى الله عليه سلم–: يفضحه الله على رؤوس الخلائق يُنادَى أمام الناس يا فلان ابن فلان لقد فعلت كذا في يوم كذا، فيتعجب الناس أهذا الرجل الذي كان يظهر الطاعة فعل كذا وكذا؟! يُفْضح –والعياذ بالله– على رؤوس الخلائق. اللهم استرنا في الدنيا والآخرة.

"يَا أَيُّهَا الْإِنسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ" المغرور؛ هو المنطلق بلا مبالاة. لذلك يقول علماء اللغة غر الماء أي صبه متدفقا، المية لما تقعد تنزل متواصل متدفقة يُقَال غَرَّ الماء، هذا انطلق في المعاصي كما قال الله –عز وجل–: "بَلْ يُرِيدُ الْإِنْسَانُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُ" القيامة:٥، انفجر في المعاصي بلا مبالاة، مغرور، مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ روي عن عمر بن الخطاب أنه لما سمع هذه الآية قال: "غره والله حمقه وجهله" أحمق جاهل. ما هو الحمق في هذا الإنسان؟ إيه هي مناطق الحمق اللي عند الإنسان اللي جعلته يكون مغتر بالله؟ قال غير واحد من المفسرين: "ظن أن الله –عز وجل– حين لم يعاجله بالعقوبة أنه سوف يُتْرَك سدى" ركز معايا دي أهم نقطة. وظن أن الله –عز وجل– حينما لم يعاجله بالعقوبة أنه سوف يترك سدى، إن هي عدت؛ بص بصة حرام وما تعاقبش، أكل أكل حرام وما تعاقبش، لم يعاقب عقاب فوري فيظن ذلك المغرور أن الله يرضى عنه، بل يسرق السارق ويقول يا رب استر، وحينما تمر السرقة بسلام يظن ذلك المغرور أن الله عفا عنه، يأكل الحرام ويظن أن طالما أن الحرام جاء وكان كثيرًا ذلك المغرور يظن أن الله قد رضي عنه.

المغرور بالله هو الذي يفعل المعاصي ويظن أن الله –عز وجل– طالما لم يعاجله بالعقوبة أن الله –عز وجل– قد رضي عنه، وأنه سوف يُترك في الآخرة ولا يعاقب. هذا هو المغرور بالله هذه طريقة تفكير اليهود "وَيَقُولُونَ فِي أَنفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ ۚ حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ" في سورة المجادِلة أو المجادَلة:٨.

اليهود كانوا يأتون إلى النبي –صلى الله عليه وسلم– ويقولون السام عليكم، أي الموت واللعنة –والعياذ بالله–، يقولون السام عليكم يدعون على النبي –صلى الله عليه وسلم–. لما يعدي اليهودي على النبي –صلى الله عليه وسلم– ويقول كده وبعدين ما تنزلش عليه صاعقة من السماء فاليهودي يقول طالما ربنا ماعذبنيش وربنا مطلع على اللي أنا بقوله يبقى أنا أكيد صح، وَيَقُولُونَ فِي أَنفُسِهِمْ بينه وبين نفسه بيقول لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ طالما أنا ما اتعذبتش يبقى أنا صح، طالما الأكل الحرام ده عدى وما حصلش فيه عقوبة وابني ما تعبش أو عربيتي ما تخبطتش يبقى أنا صح، هو يعتقد ذلك المغرور بالله، المعصية ستظل معصية ما أخبر القرآن أنه حرام وما أخبر النبي –صلى الله عليه وسلم– أنه حرام هو الحرام حتى لو فعلتها ولم تعاقب هذه طريقة تفكير اليهود.

لذلك روى الإمام الطبري في تفسيره لقول الله –عز وجل– عن أصحاب السبت؛ أصحاب القرية الذين كانوا يعدون في السبت أي يعتدون في السبت، كانوا قرية على شاطئ البحر "تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ ۙ لَا تَأْتِيهِمْ" الأعراف:١٦٣، يوم السبت كان حرام عليهم الاصطياد، فكان الحيتان تنتشر يوم السبت في البحر، بقية أيام الأسبوع لا يرون ولا حوتًا واحدا، فكيف انتشرت المعصية فيهم؟ تجرأ أحدهم يوما جاهر الله بالمعصية، فدخل جهارًا نهارًا وأخذ الحوت يوم السبت، وفي رواية أخرى أنه أخذ الحوت يوم السبت ثم ربطه بحبل وتركه يعوم في البحر حتى جاء يوم الأحد ثم أخذه مرة أخرى، فنظر إليه جاره وقال له: اتقِّ الله، ألم تعلم أن هذا حرام لما شم ريحة شوي الحوت راح قال له ماذا تفعل؟ قال: لا شيء. قال: بل انت تشوي حوتًا ثم نظر في تنوره في الفرن لقى الحوت قال له: اتق الله وخاف الرجل منه ثم ترك البيت الذي بجواره وهرب، ظن أن الصاعقة سوف تنزل عليه، قال له: طالما انت أكلت الحوت ربنا هيعاقبك وخاف من عقوبة ربنا لدرجة

---

[1] روايات الحديث هنا



إنه ساب البيت وهرب، ثم مر أسبوع ولم يحدث شيئًا فعاد الرجل يسكن بجواره، ثم الأسبوع الذي يليه أخذ يصطاد معه فانتشرت المعصية في القرية ظنا منهم وجهلًا طالما أن الله –عز وجل– لم يعاقبهم عقوبة فورية ظنوا أن هذا يرضي الله، أو أنهم ظنوا أنهم بمفازة ويفرون من عقاب الله –عز وجل–، "أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ أَن يَسْبِقُونَا" العنكبوت:٤، اللي بيعمل السيئات معتقد إنه هيسبق عذاب الله؟! اللي بيعمل السيئات معتقد إنه هيفلت من العذاب، لا والله، حتى لو فعل وأخذ بكل أسباب الستر والله سيُفْضَح يوم القيامة إن لم يتوب وإن لم يتوب الله –عز وجل– عليه.

هل يظن ذلك الملك الظالم في قصة غلام الأخدود الذي قتل الناس وأحرق كل الناس ولم يبقِ أحدًا من المؤمنين؟ هل يعتقد ذلك الظالم أنه سوف يفلت من عقاب الله حتى لو تُرِك في الدنيا إلى أن مات؟ لا والله، لن يفلت، إن الله –عز وجل– يمهل ولا يهمل –سبحانه وتعالى–.

المغرور بالله هو الذي يفجر في المعاصي ويظن أن الله –عز وجل– لا يعاقبه، يترك الصلاة تلو الصلاة ويظن أن الله –عز وجل– لا يعاقبه، الذي يفعل ما يشاء من المعاصي، الذي يفطر جهارًا نهارًا في رمضان ثم لا تنزل عليه صاعقة من السماء يظن أن الله –عز وجل– لا يعاقبه، هذا هو المغرور بالله.

فيقول الله –عز وجل–: "يَا أَيُّهَا الْإِنسَانُ" إيه اللي خلاك تعتقد إن ربنا هيسيبك؟ عشان هو كريم معاك؟ عشان بيرزقك؟ عشان بيحلم عليك؟ تقوم تظن فيه إنه هيتركك؟ كيف تظن هذا بالكريم –سبحانه وتعالى–؟ بل من مقتضى كرمه أن يحاسبك على هذه النعم "مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ" كرم الله –عز وجل– أسبغ الإنسان، الله –عز وجل– أسبغ الإنسان في نعمه –سبحانه وتعالى– "الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ" وفي قراءة فَعَدَّلَكَ، الذي خلقك من طين ثم سواك في صورة البشر ثم عدلك ونفخ فيك من روحه، وقال بعض العلماء فَعَدَلَكَ هذا الأمر يختص بالإنسان دون سائر الحيوانات وسائر الخلق أجمعين، التعديل لا يكون إلا للإنسان، الذي أعطاك كل هذه النعم أغرَّك كرمه –سبحانه وتعالى–؟! إيه اللي خلاك تظن إن ربنا مش هيعاقبك على المعاصي؟ هل عشان اداك النعم؟ ده أولى انك تطيع الله –عز وجل–.

تخيل أب أعطى لابنه أموال عشان الابن يدرس، وداه أحسن مدرسة وعلمه، وداه أفضل مكان يتعلم فيه وأنفق عليه ثم بعد كل هذا أعرض الولد ولم يذاكر حتى في نهاية العام رسب الولد وسقط، فقال له والده لماذا لا تذاكر؟ ألم أعطك من المال؟ ألم أغدق عليك من الأموال؟ لم أترك لك طلبًا واحدًا إلا ولبيته لك، لماذا لم تذاكر؟ الكرم هنا لا يستدعي الغرور بل الكرم يستدعي البذل، الله –عز وجل– أكرمنا.

ثم يقول الله –عز وجل–: "فِي أَيِّ صُورَةٍ مَّا شَاءَ رَكَّبَكَ" إما أن تكون هذه الآية تهديد؛ الله –عز وجل– قادر على أن يركب الإنسان في صورة حيوان، فِي أَيِّ صُورَةٍ مَّا شَاءَ رَكَّبَكَ أي في أي صورة يشاء الله –عز وجل– أن يركب الإنسان عليها ركبه الله، أي أن الله –عز وجل– لو شاء أن يركب الإنسان على صورة حمار لفعل، وأن الله –عز وجل– لو شاء أن يركب الإنسان على صورة قرد لفعل، بل لو شاء الله –عز وجل– أن يركب الإنسان بعد أن سواه أن يمسخه على صورة قرد لفعل، وقد فعل –سبحانه وتعالى– وقال: "كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ" البقرة:٦٥، فكانوا استجابة لأمر الله الكوني –سبحانه وتعالى–.

"فِي أَيِّ صُورَةٍ مَّا شَاءَ رَكَّبَكَ" انت لا تتحكم حتى في شكلك فكيف تتحكم في مصيرك؟ كيف لا تخاف من مصيرك وانت لا تتحكم حتى في شكلك؟ الله –عز وجل– يركبك في أي صورة يشاؤها –سبحانه وتعالى–، ولكنه بفضله يختار لك أفضل شكل ويركب صورتك من صورة آبائك وأجدادك، يختار لك أفضل صورة.

"فِي أَيِّ صُورَةٍ مَّا شَاءَ رَكَّبَكَ" الإنسان يغتر بحلم الله –عز وجل– عليه، الإنسان يغتر بستر الله –عز وجل– عليه، ولكن كما أخبر النبي –صلى الله عليه وسلم– إذا رأيت الله –عز وجل– يعطي للعبد من نعمه وهو مقيم على معاصيه فاعلم أن ذلك منه استدراج –نعوذ بالله من ذلك– وأستغفر الله لي ولكم.

الحمد لله وحده والصلاة والسلام على ما لا نبي بعده محمدٍ –صلى الله عليه وسلم–.

أحبتي في الله؛ هذه السورة تعالج خلقًا ذميمًا في الإنسان وهو خلق الغرور بالله –سبحانه وتعالى–، العاصي حينما يفعل المعصية أو يترك الطاعة ولا ينزل عليه عقوبة فورية يظن ذلك المغرور أن الله –عز وجل– قد تركه، أو يظن ذلك المغرور أن الله –عز وجل– قد أهمله حاشاه –سبحانه وتعالى–، "أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى" القيامة:٣٦، الإنسان معتقد إن هي سايبة "أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ أَن يَسْبِقُونَا ۚ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ" لن يسوي الله –عز وجل– أبدًا بين الطائعين وبين العاصين، والدنيا دار ابتلاء وليست دار جزاء، لا يعتقد الإنسان إن الحساب كله لازم يخلص في الدنيا، لا يعتقد إن الإنسان اللي بياكل الربا إنه لازم هيعاقب على كل ما فعل في الدنيا، قد يعجل الله –عز وجل– بعض العقوبات لبعض الناس، وقد يؤخر الله –عز وجل– كثيرًا من العقوبات لكثيرٍ من الناس يوم القيامة.

قال الله –عز وجل– عن يوم القيامة "خَافِضَةٌ رَافِعَةٌ" القيامة:٣، كثير من الناس يكونون مرفوعين في الدنيا، في رفعة في الدنيا ثم يأتون يوم القيامة مخفوضين –والعياذ بالله– يطؤهم الناس بأقدامهم، وكثير من الناس يعيشون في خفض في الدنيا يرفعهم الله –عز وجل– يوم القيامة.

يقول النبي –صلى الله عليه وسلم–: "إنَّ اللَّهَ يَرْفَعُ بهذا الكِتَابِ أَقْوَامًا، وَيَضَعُ به آخَرِينَ"[٢] إذًا لا تقس أبدًا حالك في الدنيا قس حالك على القرآن إن أخبرك القرآن أن هذا حرام فهو الحرام، ماينفعش نتعامل مع ربنا بسياسة أنا جربتها ونفعت، أنا جربتها ومشيت، ماحصلش حاجة أنتم متشددين ليه؟ عادي هو بقاله كده سنين وماحصلوش حاجة، معتقد إن الإنسان إنه طالما عمل معصية لازم يصيبه المرض أو الفقر أو أي شيء أو مصيبة في الدنيا، وإذا لم يحدث هذا يقول خلاص أنا كده ربنا راضي عني، هذه طريقة تفكير مادية هي طريقة تفكير اليهود نعوذ بالله أن تتسرب إلينا، إياك ثم إياك أن تغتر بحلم الله –عز وجل– عليك.

فيقول الله –عز وجل– "يَا أَيُّهَا الْإِنسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ" هو عشان ربنا بيعاملك بالكرم تغتر؟ هو عشان ربنا سايبك تغتر؟ وعشان ربنا مغرقك النعم تغتر به –سبحانه وتعالى–؟

الغرور إنك تعتقد في الشيء غير قيمته زيادة أو نقصان، الشيطان قال الله –عز وجل– عنه: "فَدَلَّاهُما بِغُرُورٍ" الأعراف:٢٢، جعلهما يظنا في الشجرة فوق قيمتهم، الغرور إنك تعتقد في شيء فوق قيمته أو تحت قيمته انت كده اتغريت اتضحك عليك، ففي هذه الآية ما قدروا الله –عز وجل– حق قدره الذين يظنون أن الله –عز وجل– طالما لم يعاجلهم بالمعاصي أنهم على رضى من الله، هؤلاء لم يقدروا الله –عز وجل– حق قدره، إذ ظنوا أن طالما ان الله –عز وجل– لم يعاجلهم بالمعاصي أنهم على خير –والعياذ بالله–.

مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ الشيطان يغري الإنسان يقول له: انت فعلت كذا ولم يحدث شيئا استمر استمر ولن يحدث شيئا، إيه المشكلة يعني ايه ما انت بتصحى الساعة ثمانية الصبح وما بتصليش الفجر وربنا مبارك لك في الرزق، ايه اللي حصل؟ مش مشكلة كمل، ويستمر هكذا "أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ * حَتَّىٰ زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ" التكاثر١:٢، إيه يعني بقالك عشر سنين ما طلعتش زكاة؟ مش لازم تسأل ومش لازم تسأل تطلع ازاي؟ ما الدنيا ماشية معاك كويس. إيه اللي حصل؟ وإيه يعني؟ آخر كل شهر بطل خمسين جنيه للفقير وخلاص، إيه المشكلة لما تتعامل في الحياة بلا مبالاة؟

---

[٢] صحيح مسلم



تأتي هذه السورة لتعلم الإنسان الخلل الرئيسي في حياته أنه لا يفكر في يوم القيامة. قال الله –عز وجل-: "كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِالدِّينِ" المشكلة الأساسية إنك مابتفكرش في يوم الدين، المشكلة الأساسية إن يوم الدين؛ أي يوم الخضوع كل فعل تفعله ودين عليك سوف ترده يوم القيامة، سوف تحاسب على كل فعل بل حتى خواطر القلوب، أفعال القلوب سوف تحاسب عليها، "كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِالدِّينِ * وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ" أي كيف تكذبون بالدين "وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ" أو كيف تغتر بحلم الله –عز وجل- عليك وتنطلق في المعاصي وكل فعل تفعله تكتبه الملائكة؟ "وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ" عليكم أي لا تُغادر عنكم أبدًا، يراقبونك.

"وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ * كِرَامًا كَاتِبِينَ" يكتبون كل فعل من أفعالك، بل حتى الهم بالحسنة يكتبونها والهم بالسيئة يكتبونها، إذا هم أحدكم بالحسنة ففعلها كتبت له عشر حسنات، وإذا لم يفعلها كتب الله –عز وجل- له حسنة، إذا هم أحدكم بالسيئة مجرد إن يهم بالسيئة فيتركها يكتبها الله –عز وجل- عنده حسنة كاملة، مجرد إنه يهم بالسيئة ثم يتركها.

"وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ * كِرَامًا كَاتِبِينَ * يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ" يعلمون جيدًا ماذا تفعل، يعلمون جيدًا عن كل نظرة خفية نظرت بها إلى الحرام، يعلمون جيدا هذا المال من أين أتى، حلال أو من حرام، "يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ * إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ * وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ" هذه هي النتيجة النهائية؛ فيه ناس أبرار هيخشوا الجنة ويتنعموا ويتنعمون في الدنيا بطاعة الله ويتنعمون في القبر ويتنعمون في الآخرة، وَإِنَّ الْفُجَّارَ شوف دقة استعمال القرآن جاء بلفظة الفجَّار، الفجَّار أي الذي ينطلق ويفجر زي الماسورة كده لما تنفجر ماتعرفش توقفها، وَإِنَّ الْفُجَّارَ انفجر في المعاصي لأنه لا يبالي لا يبالي، داخل ينام الساعة اثنين بالليل وصاحي الساعة عشرة لا يبالي بمواعيد صلاة لا يبالي، لا يبالي بأي شيء هل هو حلال؟ ينطلق ويفعل أي شيء دون أن يسأل هو حلال أم حرام، هو لا يبالي، هو مغرور بحلم الله –عز وجل- عليه.

"إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ * وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ * يَصْلَوْنَهَا يَوْمَ الدِّينِ * وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَائِبِينَ" يصلونها يوم الدين أي يُشوى في نار جهنم، كان يتنعم بالمعاصي في الدنيا الآن يُشوى في جهنم –والعياذ بالله-. يَصْلَوْنَهَا يَوْمَ الدِّينِ هذه الكلمة تكررت كثيرًا في هذه السورة أكثر من أربع مرات تقريبا، تكررت في هذه السورة يوم الدين، يوم الدين يوم الخضوع هو كان لا يفكر في هذا اليوم، "وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ * يَصْلَوْنَهَا يَوْمَ الدِّينِ * وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَائِبِينَ" أي لا يغيب عن النار أبدًا، كما كان لا يغيب عن مجالس اللهو وكان يغيب عن مجالس العلم ومجالس الدين، الآن يغيب عن الجنة ولا يغيب عن النار، أي يظل في النار دائمًا –والعياذ بالله-، لأنه كان لا يفكر؛ طب ما اروح أتعلم حاجة عن ديني، أروح أتعلم حاجة من القرآن، أتعلم حاجة من حديث النبي –صلى الله عليه وسلم-، ماذا أعرف عن ديني؟ ماذا أعرف عن الصلاة؟ عن الزكاة عن الصيام، كان لا يشغل باله أبدًا، لا يفكر لا يخطر في باله يوما أن يقل رب اغفر لي يوم الدين، لما سألت أمنا عائشة –رضي الله عنها- النبي –صلى الله عليه وسلم- عن عبد الله بن جدعان وقالت له يا رسول الله كان يطعم الطعام في الجاهلية ولكنه مات قبل أن يُسلم، مات وما أسلمش هل ينفعه ذلك يوم القيامة؟ فقال النبي –صلى الله عليه وسلم- لا يا عائشة. لماذا؟ إنه لم يقل يومًا ربِ اغفر لي يوم الدين، إنه لم يكن يفكر في يوم الدين، لم يشغل باله يوم الدين أبدًا، لم يكن يخاف من هذا اليوم، لم يفكر يومًا قبل أن ينام ماذا سأفعل على الصراط؟ لم يشغل باله يومًا كيف سأحاسب على هذه الأموال التي أخذتها من حرام؟ لم يسأل نفسه يومًا هل سيحاسبني الله –عز وجل- على نعمة الأولاد؟ على أني لم أربهم على طاعة الله؟ لم يشغل باله أبدًا بهذه الأشياء، "وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَائِبِينَ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ * ثُمَّ مَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ" يكرر الله –عز وجل- لهذا الإنسان العاصي يجب عليه أن يُكرر يوم الدين، الغافل المغرور محتاج إن كل يوم يفكر في يوم الدين، ماذا أنا فاعل؟ ماذا سأقول لربي غدًا إذا سألني؟ لابد أن يكرر الإنسان هذا المعنى دائما وأبدًا حتى يخرج من غفلته، اليوم الآخر والدار الآخرة لابد أن تشغل حيزًا ضخمًا في حياة الناس، لابد أن يفكروا دائمًا وأبدًا ماذا سيقولون لربهم غدا إذا سألهم، وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ

الدِّينِ مهما قرأنا عن يوم الدين لن نتخيل عظم هذا اليوم، مهما قرأنا وسمعنا عن يوم الدين لن نتخيل ماذا سيحدث من هول ذلك اليوم، وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ * ثُمَّ مَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ مهما سمعت لن يتخيل عقلك، لن تستطيع أن تتخيل بمدركاتك هذه لن تستطيع أن تتخيل منظر سقوط السماء على الأرض، لن تستطيع أن تتخيل منظر خروج الأجنة من الأرحام تسقط، لن تستطيع أن تتخيل منظر المرضعة وهي تلقي بالطفل الرضيع وتبحث عن نفسها، لن تستطيع أن تتخيل منظر الأب وهو يرفس ابنه ولا يريد أن يراه ويفر هاربًا من ولده ويقول له ابعد عني لا تمسك بعنقي لا أريد منك شيئا، "يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ * وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ * وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ" عبس٣٤:٣٦ لماذا؟ "لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ" عبس:٣٧.

وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ مهما سمعت أو قرأت أو تخيلت لن تستطيع أن تتصور حقيقة ذلك اليوم، لابد أن يفيق المغرور من هذه الغفلة. احذر احذر لن يجمع الله –عز وجل– على عبدٍ أبدًا خوفين أو أمنين، فمن أمن الله في الدنيا أخافه يوم القيامة، ومن خاف الله في الدنيا أمَّنَه يوم القيامة، ذلك اليوم لن ينفعك إلا عملك، "يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْئًا" لن ينفع المال، "وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّىٰ" الليل:١١ لن ينفع النسب، من بَطَّأ به نسبه لم يُسرِع به عمله، لن تنفع الأرض، إن الأرض لا تقدس أحدًا كما قال سلمان الفارسي –رضي الله عنه–، لن ينفعك إلا عملك، "يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْئًا ۖ وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ" لابد أن تحسن علاقتك بالله، لا تغتر بحلم الله –عز وجل– عليك، لا تغتر بكرم الله –عز وجل– عليك، لا بد أن نعجل بالتوبة أحبتي في الله.

كلنا يسقط في المعاصي ولكن لابد أن نعود وأن نتوب إلى الله –عز وجل–، وأن نجدد العهد والميثاق، وأن نرد الحقوق إلى أهلها، وأن نتحلل من المظالم قبل أن يأتي يوم لا دينار فيه ولا درهم إنما الحسنات والسيئات.

لابد أن يتحلل الإنسان من كل مظلمة، لابد أن يقضي الإنسان الفروض التي عليه، لابد أن يقضي الإنسان الزكاة التي عليه أو الصيام الذي عليه، لابد أن يحج الإنسان إذا آتاه الله –عز وجل– القدرة والاستطاعة والمال، لابد أن يعجل الإنسان بالتبرؤ من كل مظلمة وقع فيها.

أسأل الله –عز وجل– أن ينجينا جميعا من فتن الدنيا والآخرة، اللهم ارزقنا حسن الخاتمة، اللهم لا تتوفنا إلا وأنت راضٍ عنا، اللهم إنا نسألك لذة النظر إلى وجهك الكريم والشوق إلى لقائك في غير ضراء مضرة ولا فتنة مضلة، اللهم أجرنا من النار اللهم أجرنا من عذاب القبر، اللهم أجرنا من النار اللهم أجرنا من عذاب القبر، اللهم إنا نسألك بفضلك وجودك وكرمك نسألك الفردوس الأعلى بصحبة نبيك –صلى الله عليه وسلم– بدون سابقة عذاب ولا حساب بفضلك وجودك وكرمك يا رب العالمين، اللهم استعملنا ولا تستبدلنا اللهم استعملنا ولا تستبدلنا اللهم استعملنا ولا تستبدلنا، اللهم ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار.

أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم. سبحانك اللهم وبحمدك أشهد أن لا إله إلا أنت أستغفرك واتوب إليك وأقم الصلاة.